«الآباء الصغار» جديد دريد لحام سعى الى البساطة ووقع في مطبّ التبسيط احيانا:

دراما اجتماعية سينمائية استفادت من الاجواء التلفزيونية باقتدار

دمشق ـ «القدس العربي»
ـ من نادر اصفهاني:

يقول دريد لحام: في فيلمي الآباء الصغار وكعادتي لجأت الى البساطة، والبساطة المطلقة، كوني لا أجيد ان اقدم ملاحم سينمائية، فأنا لم اسع لأقدم الحرب والسلم أو ذهب مع الريح.

اذا كان التأرجح بين البساطة والتبسيط هي القاعدة الأساسية لأفلام دريد لحام، فأنه غالبا ماينجح عندما يحقق البساطة، ويتعثر عندما يلجأ الى التبسيط، فالفن السينمائي على الاغلب لايحتمل التبسيط، اذ انه فن مركب، بل شديد التعقيد. هنا لايعتبر الفيلم عند دريد بديلا عن أعماله التلفزيونية أو المسرحية، لكنه في الأغلب قريب من الطريقة التي ينطلق منها في تقديم اعماله تلك، وملخص منطلق دريد هو سعيه كي يقدم اعمالا ذات اهداف أخلاقية تمس العائلة، وقد ترسخ منطلقه هذا خاصة في المرحلة الثانية من حياته السينمائية، عندما ابتعد عن التعاون مع مخرجين سينمائيين محترفين وقرر أن يوقع على أخراج أفلامه بنفسه.

الفيلم الكوميدي بالمطلق لايحتمل اي نسبة من الترهل، إذ لابد ان يستند الى قصة محبوكة، وشخصيات متطورة، وكل عبارة تجري على لسان ممثليه يجب ان تكون ذات هدف، ومحققة لأهمية تخدم الحدث الرئيسي. هنا في (الآباء الصغار) لايستخدم دريد عبارة فيلم كوميدي، بل يعنون إعلانات الفيلم بعبارة (فيلم للعائلة)، واضح ان المقصود أن فيلم العائلة يواجه افلام ليست للعائلة، او مايعرف بأفلام هواة النوع، مثل افلام: الرعب، المغامرات، التشويق... الخ.

هنا وتحت عنوان فيلم للعائلة يرسم، عملاً فنياً يستند الى شخصيات بسيطة، ذات عمق انساني، كلٌ تصرف تقوم به ذات دلالات أجتماعية وعاطفية في آن معا، الفيلم يحتوي حبكات بسيطة جداً، يكاد المشاهد لايشعر بها. منذ الدقائق الخمسة عشر الاولى، يعرف المشاهد كامل الحكاية، وبالتالي لايشغل رأسه في اكتشاف أي شيء جديد، الشخصيات الرئيسية تقدم نفسها منذ البداية، والشخصيات الثانوية لاتأثير لها، فلو حذفت لما تأثر الفيلم بأي شيء. لا أختزال في اللقطات السينمائية، كاميرا مفتوحة على مشهد واحد، تصل اللقطات الى ان تكون فوتوغرافية في بعض الأحيان. افلام دريد لحام ليست موجهة بتاتا للذين يملكون معرفة سينمائية واعية، ليس موجهاً للمشاهدين الذين يمقتون المشاهد التي تفصح عن نفسها، ولاتترك لمشاهدها اي مساحة لكي يكتشف بنفسه دلالة ما.

سينما دريد لحام و (الآباء الصغار) جزء منها، لاتلجأ إلى الأختزال ـ وهو أساسٌ في الفن السينمائي، إنها سينما تقدم نفسها بوضوح مبالغ فيه، دون خلفيات أو عناصر موازية، ألحدث هنا أحادي، يحكي عن اسرة مؤلفة من ام ـ سلمى المصري ـ (رضية) وأب ـ دريد لحام ـ (ودود) وأربعة اولاد (جابر ومعن ونورا وغزل)، تموت الام نتيجة مرض عضال، وتواجه الأسرة مصاعب الاستمرار. تظهر في حياتهم (امل) حنان الترك الباحثة في الاثار و القادمة من القاهرة، تصل إليهم عبر رغبتها في استئجار غرفة، بعد أن تقرر الأسرة تأجير واحدة من غرف المنزل الثلاثة، بهدف الاستفادة من قيمة الأيجار في تحمل أعباء الحياة نتيجة انقطاع راتب الام المتوفاة.

وسرعان ما تندمج امل مع الأسرة المنكوبة بوفاة ربتها، وتنشأ المفارقة اللفظية من التعارض بين اللهجتين الدمشقية والمصرية، ومن (الفلاش باك) الذي يثبت في كل محطة له أن الاسرة تنفذ رغبات الام الراحلة.

فيلم العائلة يقود الى الابتسامة في أغلب مواقفه!! فالمشاهد التي نراها أمامنا، وسيط بصري يصل في بعض الاحيان كي يحقق الشروط السينمائية، وفي احيان اخرى يشعرك بأنك امام عمل تلفزيوني يعرض على شاشة عريضة.

العُقدة الوحيدة في فيلم طوله زهاء ساعتين هو اعتقاد الاولاد الأربعة ان أباهم قد وقع في غرام الباحثة القادمة من القاهرة امل، لكن سرعان ما تنفك هذه العقده، بأعلان الاب ان لا احد يمكن ان يحل مكان الام الراحلة.

المشاهد يقبل الشخصيات المعروضة أمامه منذ اللحظة الاولى، لا اتذكر اثناء مشاهدة (الاباء الصغار) اني قلت (لا) لأي شخصية من الشخصيات، بأستثناء موت الام، فكل شيء يعرض أمامنا سهلٌ.

الشوارع لازحام فيها، الميكرو باص يقف امام ركابه ويصعدون بمنتهى البساطة، مخفر الشرطة مكان مناسب كي يدرس ودود ويتخرج من كلية الحقوق، عمل الاولاد بفرط البازلاء والفول يكفيهم متطلبات الحياة، النظافة تعم كل الامكنة التي عرضت امامنا، لا مشاكل هناك ولا منغصات، المنغص الوحيد موت الأم، والسرور والراحة تحصلان بحصول الاب على شهادة الحقوق.

كل مايقدم عبر الشريط السينمائي (الآباء الصغار) إنساني بأمتياز، شخصيات تقدم نفسها مباشرة دون اي تأسيس، وبالتالي لاحبكة هناك، اراد دريد لحام ان يقدم عملاً لانقاط سلبية فيه، عمل اخلاقي، أحادي، سهل، بسيط، يجلب الابتسامة دون ان يكون كوميديا، ويقود الدمعة الى العين دون ان يكون هناك مواقف تراجيديه.

دريد لحام محاطا بـ «الاباء الصغار» في لقطة من المسلسل (القدس العربي)

دريد لحام في ندوة أقيمت الشهر الماضي في نقابة الصحافيين بالقاهرة حيث اطلق عرض الفيلم في القاهرة قال: أحلموا، لا يوجد شيء أسمه المستحيل، علينا أن نتسلح بالإرادة حتى نحقق أحلامنا.

ويضيف متحدثا عن فيلم (الأباء الصغار): هذا الفيلم كان حلمي الأكبر، وفاجأني المنتج يوسف الديب عندما تحمس لأنتاجه!! وأردت من خلال الفيلم أن أقول أن العائلة المتماسكة المتفهمة هي التي تصنع وطناً متماسكاً ومتفاهماً. من خلال (الآباء الصغار) أدعو الجميع للأهتمام بالاطفال، فكثيرون يسألونني: لماذا لا نرى الاطفال في الأعمال الفنية وهم نصف المجتمع؟ هذه البراعم الصغيرة لابد من تأهيلها بشكل صحيح حتى نضمن مستقبلاً أفضل لوطننا، ويجب أن تكون تنشئة الاطفال سليمة من خلال عائلة سليمة.

شارك دريد في كتابة السيناريو المخضرم رفيق الصبان، لكن هذه المشاركة لم تلعب دوراً هاماً، فبقيت هناك تفاصيل لا مبرر لها، أدت الى تطويل، أضافة الى محدودية مواقع التصوير، وإبتعاد السيناريو عن المشاهد الحركية، أضافة الى أغراق السيناريو في الحوار الزائد، واحيانا المكرر، فالمفارقة التي قادت الابتسامة الى شفاه المشاهدين عند ابراز التعارض بين اللهجتين الدمشقية والمصرية، تكررت الى درجة ان بعض المشاهد اصبحت إذاعية. الفكرة البسيطه جدا للفيلم، قادت دريد في إخراجه الى نقل اجواء فنية حميمة جداً، صادقة، ووصل صدقها الى جمهور المشاهدين، لكنه لم يعبر بالشخصيات الى أبراز مابداخلها، وبقيت الملامسة انسانية خارجية. السينما ما تشاهده لا ما تسمعه، هنا المشاهدة توازت مع السماع، وكان لهما نفس الأثر.

فيلم (الآباء الصغار) سعى لتقديم قفشات كوميدية ذكية، واستفاد من قدرة المخرج على الامساك بعفوية الاطفال الأربعة الذين حركهم بأقتدار يحسب له، خبرة دريد لحام ممثلاً، تجعله يوما بعد يوم يخبر عن حرفية عالية، وقدرة على ادهاش مشاهديه بالاداء السهل الممتنع.

في الفلم تلعب حنان الترك دوراً رئيساً، خبرتها كممثلة محترفة، انقذت الفيلم من الوقوع في مطبّ التبسيط، وساعدت دريد في نفس الوقت على حمل جزء رئيسي من المشاهد، خبرة حنان الترك ونضجها جعلت المشاهد التي تجمعها بالآخرين مليئة بالمواقف الكوميدية التي ساعدت على ايصال الرسالة الاجتماعية الحميمة التي سعى لها دريد.

امور عديدة تسجل للشريط السينمائي (الآباء الصغار) اولها عودة الانتاج السوري ـ المصري المشترك، والثاني تعزيز الاشرطة السينمائية التي يمكن ان تعيد افراد الاسرة الى ارتياد الصالات السينمائية، وثالثها انها بث روح في انتاج القطاع الخاص السوري. وابرزها ان دريد لحام رغم كل العقبات التي تواجه صناعة السينما، مازال قادرا على ان يقف وراء انتاجات سينمائية جماهيرية، قادرة ان تعيدنا الى الدراما الاجتماعية النظيفة.

أعجبه أداء نور الشريف والفخراني في رمضان

محمود ياسين: السادات غضب مني في فيلم «على من نطلق الرصاص» وكرمني في أول عيد للفن!

القاهرة ـ «القدس العربي»
ـ عمر صادق:

لم يغضب النجم محمود ياسين بسبب خلو اسمه من أعمال رمضان الماضي، وعلى حد قوله انه انتهز الفرصة لمشاهدة أعمال زملائه والاستمتاع بالرؤية البصرية.

يقول: لم أخذ موقف عدم عرض أعمال لي في رمضان بأي حساسيات، بالعكس تعاملت مع الموقف برؤية وثقة فنان وكان فرصة قلما تتدر أن تخلو أعمالي من العرض في رمضان خاصة انني منذ سنوات طويلة فارس هذا الشهر والجواد الرابح دائما. وحول من أعجبه من الفنانين وأهم المسلسلات التي لفتت انتباهه يقول: كثيرة، أعجبني أداء نور الشريف في «حضرة المتهم أبي» والفخراني في «سكة الهلالي» وهذان المسلسلان بالذات تابعتهما من الألف للياء ولم أترك حلقة إلا وشاهدتها برغم انشغالاتي الأخرى في التحضير لأعمال جديدة.

■ لكن معظم الدراما لم تكن على مستوى لائق، فهل تابعت باقي الأعمال؟

■ تابعت فقط سكة الهلالي وحضرة المتهم أبي ولم أتمكن من مشاهدة باقي الأعمال وبالتالي من الصعب إصدار أحكام عليها وأنا لم أرها، ولا أريد أن أبخس حقها ولكن بشكل عام الدراما تقدمت كثيرا وبدأت تنهل من موضوعات الساعة وتهم شأن كل بيت تقريبا.

■ ماذا لفت نظرك في أداء الفنان الكبير نور الشريف؟

■ نور فنان كبير وصاحب امكانيات ويعرف كيف يختار أدواره وهذا سر تألقه على مدى سنوات عمره الدرامي.

■ والفخراني؟

■ لعب دور عمره في سكة الهلالي وأقنعنا بأدائه الرشيق، وأعتقد أن هذا العمل أعاد لجمهوره الرونق خاصة بعد ما تردد أن آخر أعماله في رمضان قبل الماضي «المرسى والبحار» لم يكن على المستوى المطلوب ولكن يظل للفخراني دائما بريقه ونجوميته وأدائه المتمكن.

■ بعيدا عن دراما رمضان، تسلمت في العام الماضي من جيسي موريس المدير التنفيذي لبرنامج الغذاء العالمي درع منظمة الأمم المتحدة واختيارك سفيرا لبرنامج الغذاء العالمي، ألم تجد تعارضا بين هذا المنصب وعملك الفني؟

■ عندما رشحوني وافقت على الفور لأني بطبيعة الحال أعشق أعمال الخير ولا أتأخر، ولا أجد تعارضا بين عملي كفنان وبين منصبي الحالي فأنا أعرف كيف أفق بين الاثنين.

محمود ياسين وابنه عمرو في لقطة من احد المسلسلات (القدس العربي)

■ برغم أنك نجم سينمائي ومسرحي في فترة السبعينات والثمانينات، إلا أن السينما تحديدا لم تكن ضمن اهتماماتك ولا أولوياتك فما السبب؟

■ أنا عاشق للمسرح منذ مولدي في مدينة بورسعيد واطلعت على مؤلفات كبار المسرحيين أمثال شكسبير وابسن وموليير وبرناردو شو وديستوفسكي وتشيكوف وغيرهم وبالتالي كنت متحمسا للمسرح وتمنيت العمل بالمسرح وكان حلمي الوحيد أن أقف على خشبته في دور صغير ولكن رغم عشقي للمسرح وهيامي به فوجئت أن السينما تفتح ذراعيها لي وترحب بي وبالتالي بدأت فيها.

■ هل صحيح ما يتردد أن النجم الحقيقي هو نجم السينما فقط؟

■ غير صحيح، النجم نجم في أي مجال سواء في المسرح أو التليفزيون أو الإذاعة وتجربتي الشخصية تؤكد أن الجماهير تتوق شوقا لمشاهدة نجمها المفضل في أي مجال.

■ معظم النجوم الكبار كشفوا عن انتماءاتهم السياسية، لماذا لم تعلن انضمامك لاي حزب في الشارع السياسي المصري؟

■ أنا لا أنضم لأي حزب، الفنان لا ينبغي له أن ينضم لأي حزب حتى يصبح محايدا، الفنان الذي ينضم لحزب يصبح مقيدا في أفكاره ومعتقداته السياسية وأنا والحمد لله أرى نفسي صاحب نظرة شمولية ولا أوظف فكري لحساب أي حزب.

■ ولكن تأثير السياسة أعم وأشمل على الفن؟

■ الفن ليس له مجال آخر سوى القضية السياسية التي تبدأ من رغيف العيش حتى الدستور والفنان ليس له أن ينحاز أو يتلون بلون حزبي.

■ وصل رصيدك الفني عام 1977 إلى 57 فيلما ألا تعتبر ذلك انجازا؟ ولماذا؟

■ بالتأكيد انجاز لأن الساحة كانت مهيأة لهذا خاصة إذا ما وضعنا في الاعتبار أن نجوم هذه الفترة في السبعينات قلة وبالتالي أعتبر ذلك انجازا بكل المقاييس.

■ سبق اسمك النجم الراحل رشدي أباظة على أفيش فيلم «أين عقلي»، ألم يغضب رشدي رغم انه نجم كبير انذاك؟

■ رشدي فنان عظيم وشخصية طيبة للغاية ولم أحس أنه اعلن تذمره بالعكس كان يشجعني ويدفعني وهذه كانت روح الجيل الماضي أن يمدوا يد المساعدة للأجيال الجديدة.

■ السادات غضب من فيلم «على من نطلق الرصاص» ومع ذلك كرمك في أول عيد للفن، فلماذا؟

■ «على من نطلق الرصاص» فيلم نجح في فضح سلبيات هذه الفترة التي حكم فيها السادات وكان قاسيا جدا، وشهادة لله فإن الرئيس السادات أصدر أوامره بعرض الفيلم وقام بتكريمي في أول عيد للفن عام 1976 مع يوسف وهبي وعبدالوهاب والسيدة فاتن حمامة.

■ الأفلام الحالية أصبحت تغازل النظام ولا تقترب من الأزمات؟

■ طالما أن الأفلام تدور محاورها في اطار رومانسي أو كوميدي فإن الهم الكبير سيظل بمعزل عن التناول، اصبحنا نستسهل في موضوعاتنا ولم نعد نناقش قضايانا بأفلام تلقي الأضواء على الواقع كما كنا نفعل أيام السينما الجميلة.

■ يظل اسم محمود ياسين صاحب الرصيد الوفير في تقديم أفلام وطنية عن انتصارات حرب أكتوبر 73 فما السبب؟

■ الأعمال الفنية عن أكتوبر واجب قومي لأن فترة السبعينيات اشتهرت بالزخم الوطني والنضالي وروح الانتصار لشعوبنا العربية والمصرية والانسان المصري وقواتنا المسلحة وكان طبيعيا أن أعبر عن هذه المرحلة بأفلام تتناول هذا الحدث القومي الكبير وبدأتها بفيلم «الرصاصة لا تزال في جيبي» والوفاء العظيم، وفي المسرح قدمت «حدث في أكتوبر» وهي المنظومة «الاكتوبارية» التي كنت الأكثر حظاً فيها بالمشاركة وأمضيت عاما كاملا على خط القناة أصور أفلامي ما بين السويس والقنطرة والإسماعيلية ومازال دخان المعارك ينبعث في شدوان ورأس العش وغيرهما.

■ برغم مرور 5 أعوام على ميلاد نجلك عمرو فنيا وتقديمه لأكثر من عمل مثل «ثورة الحريم» للتليفزيون و«الجميلة والأندال» للمسرح إلا أنه لم يعلن عن موهبته، فلماذا؟

■ مازال الطريق طويلا أمامه، ومازال يبحث عن موهبته وأنا واثق انها سوف تتحقق يوما ما.

■ ما هي النصيحة التي تقدمها له

■ الصبر والمثابرة.

■ لماذا لا تنتج له؟

■ الانتاج ليس عملية سهلة كما يظن البعض، لأنها تتعلق بالسوق وهي عملية مرهقة للغاية ومعادلة صعبة ولابد من تحقيق معادلة النجاح الفني والنجاح التجاري معا وهذا أمر ليس سهلا.

■ لماذا لم تبد رأيك فيه كفنان؟

■ هذه مهمة الجمهور والنقاد ومن الصعب أن أحكم على موهبته ورأيي لن يضيف له شيئا.

■ يؤكد المقربون منك بإنك مارست ضغوطا لاعتزال ابنتك رانيا والتفرغ لتربية ابنها عمر؟

■ أنا لست ديكتاتورا، ولا أتدخل في شؤون أبنائي ولم أمارس أي ضغوط خاصة أنها في عصمة رجل وعودتها للأضواء أو الاحتجاب عنها لست مسؤولا عنه، والقرار في النهاية قرارها وحدها.

اخبار فنية

53 عملا مغربيا في مهرجان القاهرة للاذاعة والتلفزيون

الرباط ـ «القدس العربي»:

شارك المغرب بـ53 عملا إذاعيا وتلفزيا في مهرجان القاهرة للإذاعة والتلفزيون الذي اختتم الخميس بمشاركة19 دولة عربية.

وتشارك الشركة الوطنية للإذاعة والتلفزة المغربية في هذا المهرجان بـ39 عملا منها عشرة أعمال في مسابقات الانتاج الإذاعي، و29 عملا في مسابقات الانتاج التلفزي.

وتتوزع الأعمال الإذاعية المشاركة بين البرنامج الحواري والتحقيق الإذاعي والبرنامج الخاص وبرنامج المسابقات وبرنامج المنوعات وبرنامج الطفل، فيما تتوزع الأعمال التلفزية بين المسلسل الاجتماعي والمسلسل الكوميدي والفيلم الروائي القصير والفيلم التسجيلي والبرنامج الحواري والبرنامج الخاص والتحقيق التلفزي وبرنامج المنوعات وبرنامج المسابقات وبرنامج الطفل والرسوم المتحركة والصلصال والمسابقة الخاصة.

أما القناة الثانية (دوزيم) فتشارك بـ14 عملا تتوزع بين الدراما التلفزية (المسلسل الاجتماعي والسلسلة الكوميدية والفيلم الروائي القصير) والإعلان التجاري والبرنامج التسجيلي والبرنامج الحواري والتحقيق وبرنامج المنوعات وبرنامج المسابقات.

كما تشارك القناة الثانية برواق في المعرض المقام على هامش المهرجان والذي يعرض انتاجات القناة ووصلات للتعريف بها.

ويحضر المغرب كذلك في هذه التظاهرة من خلال مشاركة أربعة مهنيين في لجان التحكيم. وهم أمنية الزبيري حكيم بنحمو ومحمد بوفراحي وحسن حجيج. كما يكرم المهرجان المخرج المغربي محمد أقصايب إلى جانب عشرة إعلاميين عرب.

وصرح عبد الرحيم أبو المواهب رئيس قطاع التواصل الداخلي والخارجي في الشركة الوطنية للإذاعة والتلفزة، رئيس الوفد المغربي إلى المهرجان، أن مشاركة الشركة هذه السنة كانت بأعمال تتميز بالجودة وتستجيب للمعايير الدولية.

وقال إن اختيار الأعمال المشاركة تم وفق منهجية جديدة ومن طرف مهنيين، وذلك انسجاما مع التحولات والاصلاحات التي يشهدها المجال السمعي البصري في المغرب.

فضائيات

رحلة لاستعادة الاندلس المفقود ودعوة لاسبانيا لتنظيم «الحج»!

توفيق رياحي*

■ احد ابرز قادة الثورة الجزائرية اسمه احمد (علي) مهساس. عُرف بجرأته في القول والفعل. لهذا عاش على هامش الحياة العامة والسياسية بعد استقلال البلاد، وفي 1989 انشأ حزبا سياسيا. استضافه التلفزيون الجزائري في 1990 ضمن برنامج حواري مباشر فسأله المذيع مراد شبين عن رأيه «في الازمة» والحلول التي يقترحها، وكان هذا السؤال جاهزا يُطرح على كل ضيوف برنامج «في لقاء الصحافة» فيمضي الضيف في كلام عن «حلول» بعضها رغي وهذيان.

بينما كان الضيوف الاخرون يتفلسفون وينظّرون في السياسية والاقتصاد وكل شيء، قال مهساس بعفوية وبدون تردد: «آخويا اللي دارها بيديه يحلها باسنانه.. انا ما عندي ما دخلني».

لو كان الذين اضاعوا الاندلس على قيد الحياة لحقّ للاخرين محاسبتهم على تضييعها ووجبت مطالبتهم باستعادتها.

دعكم من اي كلام اخر: اذا كان هناك من جنة مفقودة او ضائعة، فهي الاندلس. واسوأ ما فيها انها ضائعة مرتين. واحدة هي الضياع الحقيقي قبل أكثر من 500 عام، والثانية من خلال الاهمال والتجاهل الان.

وبما انها في ايدي اخرين والوصول اليها بالنسبة لورثة (اصحابها) المطرودين منها من اصعب ما يكون بسبب مشاكل الفيزا والاقامات ومشاق وتكاليف السفر، كان يجب ان تعمل الصورة على نقل «الجنة» الى بيوت هؤلاء المساكين. واقصد هنا القنوات التلفزية.

يجب التنويه الى ان «الجنة» من السحر بحيث لا تنفع معها صور تلفزيونية، بل يجب ان تُرى وتُزار. رغم ذلك، قصرّ اصحاب الصناعة التلفزيونية بحق هذه «الجنة» وبحق الناس الذين يجهلونها ويقع عليهم واجب معرفتها.

انظروا الى هذا الكم الهائل من القنوات التلفزية الفضائية والارضية من حولكم، ثم حاولوا ان تتذكروا كم برنامجا او تحقيقا عن الاندلس شاهدتم في السنوات ـ لنقل ـ الثلاث الاخيرة.

اعرف ان اطنانا من الوثائق كُتبت عن الاندلس بكثير من اللغات بينها العربية، وان هذه الاعمال، خصوصا التي بالعربية، ظلت ترفا فكريا وثقافيا حكرا على فئات بعينها. لكن لا اذكر ان عدد الاعمال الجادة التي عرضتها تلفزيونات عربية عن «الجنة الضائعة» تجاوز اصابع اليد الواحدة. ولا اذكر ان القليل من هذه الاعمال التي امكن مشاهدتها كانت من انتاج او من وجهة نظر المطرودين من تلك «الجنة» او ورثتهم. ولا اتوقع ان قناة عربية كبرى واسعة الانتشار كانت ستتنازل وتبث عملا ينتجه عربي او مسلم يعيش بارض عربية او مسلمة (هذا جزء من عقدة نفسية نعانيها جميعا فلا نرضى الا بما يرد من الاخر. نعم الانتاج قليل اشبه بالمقررات المدرسية، لكن هذا القليل تلاحقه لعنة).

احدث هذه الاعمال بثته قناة «الجزيرة» قبل نحو شهرين، كان عبارة عن شريط وثائقي من انتاج الصحافي البريطاني، الصومالي الاصل، راجي عمر.

كان عملا جيدا انجزه صاحبه على طريقة التحقيقات التلفزيونية الانكليزية. لكن لا اعرف هل كانت القناة ستشتري العمل وتبثه لو كان عربيا خالصا وغير مترجم من اللغة الانكليزية. والله اعلم هل سنعيش ما يكفي لنرى عملا اخر ينافسه او يكمله.

***

عندما تتجولّ في بر تلك الجغرافيا تتأكد يقينا ان «النار تخلف الرماد» حقا. ودليلك ان اجيالا صنعت تلك الروائع في ذلك الزمن، واجيالا اخرى عجزت في هذا الزمن عن ـ مجرد ـ ان تراها وتسمع عنها.

هناك في غرناطة، باحدى ساحات قصر الحمراء، سألت الصديق حسين مجدوبي عن سبب التقاعس عن تعميم المعرفة حول هذه المدينة التي تشبه متحفا مفتوحا ومنطقة الاندلس ككل. قال «مشكلة العرب انهم لا يرون أبعد من مصر شرقا رغم ان الاندلس تراث انساني». وهو ايضا من انصار ان تاريخ المنطقة يجب ان يُكتب ويُصوّر بـ«روح وعين عربيتين».

الاندلس حاضرة في حياتنا اليومية. مثل فلسطين والعراق، وإن بشكل مختلف. فقد لا يمر يوم واحد في حياة احدنا دون ان يسمع الكلمة هنا او هناك، في هذا السياق او ذاك. لكن، بينما نكاد نحفظ جغرافيا العراق والضفة الغربية وقطاع غزة عن ظهر قلب، لا نكاد نفرّق بين غرناطة وقرطبة.

لم تعد الاندلس جسرا (سابقا) بين ثقافتين وحضارتين. هي الان اكثر من ذلك. صحيح هي البر الاول الذي يصله الوافدون من عوالم البؤس والحروب والسجون بحثا عن حياة اقل مرارة وشقاء. هؤلاء الذي ننشر عنهم يوميا في الصحف ونقرأ اخبارهم في شرائط الاخبار المتسارعة على مدار الساعات في اسفل الشاشات.

لكن الاصح انها ايضا موطن نحو ثمانية الاف مغربي بينهم حوالي 1500 طالب في الجامعات (اغلبهم تخصص صيدلة وطب وترجمة) وقرابة مئتي باحث دكتوراه. هؤلاء هم الذين يخشى اليمين الاسباني ان «يستعيدوا» المدينة (كأنه يدرك مسبقا انهم لن يعودوا الى بلادهم)، بينما هناك من يتواضع بالاعتقاد ان الاندلس، وخصوصا غرناطة، تستعيد من خلالهم ماضيها وروحها.

والاصح (مرة اخرى) انها ملتقى تتقارع فيه الحضارتان ـ حتى لا اقول تتصارعان. فالوصول المتسارع للمغاربة والمغاربيين يقابله اصرار من المنطقة على البقاء على ما هي فيه. ربما تجسد هذا الاصرار في احتفالات صاخبة تقيمها غرناطة احياء لسقوطها من المسلمين في الثاني من كانون الثاني (يناير) من كل سنة. وتجسده عبارة «العرب في الشاطئ» المستعملة من ذلك الزمن الى اليوم كناية على انهم عادوا او سيعودون او يرغبون في العودة. لكن مَن في الشاطئ اليوم ليسوا العرب وحدهم، بل افارقة وامازيغ وحتى اسيويون، وسائط نقلهم قوارب خشبية او مطاطية مهترئة احدها يصل وعشرة تسلّم ركابها بسهولة لحوت مياه مضيق جبل طارق ومياه المحيط الاطلسي.

الاندلس حاضرة في حياتنا اليومية. مثل فلسطين والعراق، وان بشكل مختلف. فقد لا يمر يوم واحد في حياة احدنا دون ان يسمع الكلمة هنا او هناك، في هذا السياق او ذاك. لكن، بينما نكاد نحفظ جغرافيا العراق والضفة الغربية وقطاع غزة عن ظهر قلب، لا نكاد نفرّق بين غرناطة وقرطبة.

بعد زيارة قصيرة، بتّ أؤمن بان اسبانيا تتحمل مسؤولية ازاء المسلمين وعلاقتهم بالمعالم الاسلامية في الاندلس تقترب من تلك التي تتحملها السعودية ازاء المسلمين وعلاقتهم بالحرمين الشريفين.

واقتنعت ان اقل واجبات الدولة الاسبانية ان تسهّل على المسلمين الراغبين في زيارة تلك المواقع. لعلهم عندما يشاهدونها تستقيظ نخوتهم الميتة.

يروي الاديب السوري الراحل عبد السلام العجيلي (1918 ـ 2006) ان الناقد المصري الراحل لويس عوض (1915 ـ 1990) ظل يتمسخر على المثقفين «الشوام» الذين يذهبون الى الاندلس فيعودون مفتونين بها يبكون ضياعها، الى ان زارها ورأى بأم عينيه فقرر التوقف عن الاستهزاء. اذا كنت بصدد قراءة هذا المقال وانتابك نفس رد فعل الراحل لويس عوض، انصحك بالزيارة الى هناك.

* كاتب من اسرة «القدس العربي»

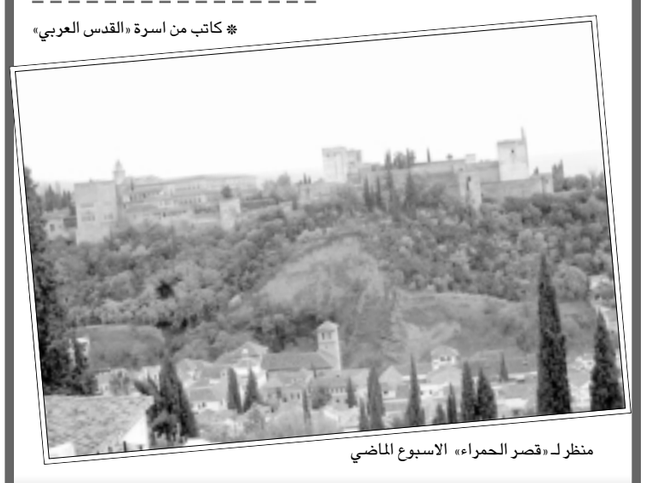

منظر لـ «قصر الحمراء» الاسبوع الماضي

وارضيات